مجلة عالم الكتاب العدد ٣١ عام ١٩٩١م

عروض موقعه

حكماء وادى النيل

● حكماء وادى النيل / تأليف محمد العرب موسى : تقديم نعمات أحمد فؤاد . — [القاهرة] : مؤسسة أخبار اليوم ، 1990 . — 144 ص : أبيض ؛ 20 سم . — (كتاب اليوم ، العدد 315) . — 150 ق م

د. حسن فتح الباب

قيمة الالتزام بالمنهج العلمى القائم على تحرى الموضوعية والدقة فى الدراسة والأمانة المرجعية هى أولى القيم التى تتميز بها مؤلفات الكاتب السياسى والباحث التاريخى الأستاذ محمد العزب موسى . وتتوالى على هذا النهج إصداراته الغزيرة ولا سيما فى مجال حضارة مصر القديمة عبر مسيرة تمتدت طوال أكثر من ثلاثين عاما بدأها بكتابه (ثورة على الإقطاع) الذى حاز شهرة عريضة إبان صدوره ، وختمها حتى الآن بكتابة (حكماء وادى النيل) الذى نقدمه فى هذا العرض .

ويقع الكتاب فى ١٤١ صفحة استهلت بمقدمة للدكتورة نعمات أحمد فؤاد . ويتألف من سبعة فصول تتراوح فى طولها تبعا لطبيعة المادة التى تتناولها والمعطيات المتاحة فى الموضوع . وأهم ما يستدعى النظر أن الكتاب يتجاوز السرد التاريخى البحت إلى البحث عن الجذور الاجتماعية والسياسية التى تقف خلف الأحداث وربط نصوص الحكماء بالجيوبوليتكا (الجغرافية السياسية) وفلسفة الأديان ، والنظرة المقارنة للحضارات من خلال العلاقة الجدلية بينها وعوامل تطورها .

والمحور الذى تدور حوله فصول الدراسة هو الأقوال المأثورة لحكماء مصر الفرعونية عبر مختلف العصور ، ويتناولها المؤلف من حيث دلالاتها هلى الحضارة المصرية فى شتى تجلياتها البيئية والإنسانية وانعكاساتها على مرآة المجتمع فى أبنيته التحتية (المادية) والفوقية (الروحية) بما تتضمنه الأخيرة من قيم ومثل استقرت حتى تحولت إلى تقاليد وعادات مرعية مشمولة برعاية الحكام ورجال الدين وتقديس الرأى العام لها باعتبارها مبادىء ثابتة تحفظ الهوية الوطنية وتوطد الكيان الاجتماعى ورسالته الحضارية المتواصلة .

والكتاب بوجه عام مرافعة بليغة تهدف — إلى الدفاع عن الحضارة الحكيمة لمصر القديمة ، ودحض الافتراءات التى توجه إليها من بعض الأقلام غير الواعية أو ذات النظرة الأحادية السطحية ، وذلك من خلال استهداء المؤلف بالوقائع التاريخية وتحليل النصوص دون تزيد أو انتقاص ، وإعمال الدقيق فى هذا التحليل والحماسة فى طرح آراء المؤلف تضفى على الكتاب قوة ، كما أن الجرأة فى تناول العلاقة بين العقائد الفرعونية والديانات السماوية تناولا علميا تمثل خطوة متقدمة على هذا الطريق ، وتسد ما قد نجد من فجوات فى الدراسات السابقة فى هذا الموضوع .

وتتمثل هذه الجرأة مع سلامة الاستدلال فى معظم فصول الكتاب ، والقارىء يستشعرها منذ الفصل الأول وهو (فكرة

العدالة فى مصر القديمة) ، إذ يرد فيه المؤلف على حملات التشويه التى استهدفت مصر والتى بدأها بنو اسرائيل بعد خروجهم الشهير ، وشارك فيها اليونانيون الذين استوطنوا مصر فى أواخر عصورها الذهنية ، ثم الإغريق الذين جاءوها فى زمن البطالمة ، فالرومان الذين جعلوها أجران قمح لروما .

وليس أدل على ذلك مما تنطوى عليه هذه الحضارة من قيم أخلاقية ومعنوية وفكرية رفيعة كانت بمثابة الدم الذى يجرى فى شرايينها . وكانت هى السبب فى استمرارها وبقائها هذه الآلاف من السنين . فلا يعقل أن تدوم حضارة ما كل هذه المدة الطويلة إذا كانت قائمة على الظلم والاستبداد .

ويسوق المؤلف براهينه على هذا الرأى الصائب فى الفصل الثانى المعنون (فرعون موسى) فيقول إن من أهم أسباب إنكار البعض للحضارة القديمة تصورهم الخاطىء بأن القرآن الكريم قد أدانها وأهان أهلها ، وهذا فهم سطحى قاصر لأنه مبنى على ظاهر الآيات القرآنية الخاصة بموسى وفرعون . والحقيقة أن هذه الأدلة القرآنية لا تنصب إلا على فرعون موسى وحده وحاشيته وأنصاره ممن ظلوا على الكفر بعد ان تبين لهم الحق ، وفيما عدا تلك الزمرة الحاكمة أو الطغمة الكافرة لا نجد فى القرآن الكريم سوى الإشادة بمصر وأرضها الطيبة .

ويعقد المؤلف مقارنة غير مسبوقة لهذا الرأى ، فعندما استشار فرعون جلساءه فى أمر موسى وهارون دلوا على نظراتهم المتحضرة إذ قالوت كما ورد فى القرآن الحكيم (قالوا أرجئه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم » أما أصحاب النمرود فقد أشاروا بقتل إبراهيم الخليل حين استشارهم النمرود . وفضلا عن ذلك فإن السحرة آمنوا بموسى فى ساعة واحدة عندما تبين لهم أنه على حق دون أن يخشوا بطش فرعون وعذابه . وهو موقف من أعظم مواقف الانتصار لحرية الفكر والشجاعة الأدبية فى مواجهة الطغاة . وهؤلاء السحرة لم يكونوا مجرد حواة ، وإنما كانوت فى واقع الأمر علماء وحكماء أى خلاصة المثقفين فى المجتمع المصرى .

وعلى هذا النهج المتحضر كانت هنالك أيضا آسيا امرأة فرعون ، وذلك المصرى والمجهول الذى دافع عن موسى وانتصر لرسالته غير عابئ بما ينتظره من عقاب ، كذلك ما شطة بنت فرعون التى آمنت بموسى عليه السلام ، فتمشطها فرعون هى وأولادها بأمشاط من حديد كما يشمط الكتاب ، وهى ثابتة على ايمانها بالله تعالى . ومن ثم فإن تحليل قصة موسى وفرعون فى مختلف مواقعها فى القرآن يحمل فى ثناياه من الثناء على مصر والمصريين قدر ما يحمل من الإدانة والسخط على فرعون وملئه . بل إن محيى الدين بن عربى وهو أكبر علماء الصوفية بلا منازع ومن كبار مفكرى المسلمين ذهب إلى صدق إيمان فرعون لقوله كما ورد فى سورة يونس : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » . ولكن أصحاب الحملة الظالمة على مصر وحضارتها لا يذكرون شيئا من هذا كله ، ويركزون فقط على كفر فرعون وجبروته ، وكأن مصر تتحمل وزرة إلى أبد الأبدين .

الاعتماد المتبادل بين الفضيلة والدين

تعنى الربة (ماعت) فى الميثولوجيا الفرعونية إلهة العدالة والحق والفضيلة . وكانت هنالك معايير دقيقةلا لتطبيق فكرة العدالة تجعل منها دستور أخلاقيا غير مكتوب يهتدى به الناس فى معاملاتهم . وهذه الفضائل لم تكن تنبع أصلا من الدين ، وإنما نبعث من المجتمع الواقعى وصميم احتياجاته فى وقت كان الدين لا يزال يحلق فى السماء بحثا عن الآلهة فى قوى الطبيعة وما وراء الطبيعة . ثم أخذت فكر الفضيلة (ماعت) وفكرة الدين على الفضيلة . وكان ذلك آيذانا بنزول الآلهة إلى الأرض وعنايتهم بشئون البشر . وبدأ الناس يتلقون أوامرهم الأخلاقية ، من الآلهة بالنهى عن الرذائل ، وأصبحت (ماعت) هى حلقة الوصل بين الدين والأخلاق أو بين السماء والأرض . وعندما تقدمت الدولة تقدما كبيرا نحو المركزية لم يجد الحكماء أفضل من كلمة (ماعت) للتعبير عن النظام الأخلاقى الاجتماعى الذى تقوم عليه الدولة . وبعد أن كانت (ماعت) فضيلة فردية أصبحت دستورا عاما للفضائل الجماعية التى لا يستقيم بدونها الحكم ، وصارت تعنى النظام فى مواجهة الفوضى ، والعدل فى مواجهة الظلم ، والصلاح ضد الفساد .

وقد تحدث الحكيم إيبور والحكيم نفرو وهو عن هذا الحاكم الصالح وتنبأ بمقدمة وحددا الصفات المنشودة فيه مما يدل على أن فكرة الحاكم العادل أو المهدى المنتظر مردها إلى الفكر المصرى القديم ، وبعد أكثر من ألف وخمسمائة عام من عصر الحكماء المصريين بدأ أنبياء بنى إسرائيل يبشرون بظهور المسيح (الراعى الصالح) الذى ينهضون على يديه من كبوتهم .

وتعبر قصة الفلاح الفصيح عن درجة عالية من الوعى السياسى والاجتماعى ، بل يمكن اعتبارها أو صيحة فى سبيل الديمقراطية وحقوق الانسان ، وحجر الأساس فى صرح العدالة الاجتماعية . وهى تربط بين السلطة والمسئولية ، وتكاد تقول صراحة إن شرط بقاء الحاكم أن يقوم بتنفيذ التزاماته نحو الشعب . فهل يصح بعد ذلك أن يقال إن حضارة مصر القديمة قامت على الظلم والطغيان ؟

وادى النيل منبع الحكمة :

ولقد وصلت إلينا كثير من الكتابات المصرية القديمة سواء فى الدين أو الحكمة أو القصص أو الأشعار أو الطب أو الرياضة بنفس الطريقة ، فكانت تنسخ مرارا وتكرارا عبر القرون السحيقة ، وربما تصبح تمارين يتدرب الطلبة على كتابتها . وهكذا كانت الثقافة المصرية محفوظة دائما فى السجلات ، ومن ثم يتبين وعى المصريين المبكر بأهمية بل ضرورة التسجيل من طريق التدوين ، وهو المعنى الذى أكده الإسلام بعد ذلك بعشرات القرون بقول الرسول عليه السلام : « العلم صيد والكتابة قيد » ، وكانت بداية النهضة العلمية والثقافية الإسلامية تدوين العلوم الدينية والعلوم الدينوية .

إنها حضارة الثقافة وثقافة الحضارة . فلقد كانت الثقافة بكل فروعها النظرية والعملية هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة المصرية برمتها ، فهى لم تقم على القوة الباطشة ولا على الثراء العريض ، وما قامت على النشاط التجارى والبحرى شأن معظم الحضارات الأخرى ، وإنما نهضت على أساس واحد هو الثقافة . فلا غرو أن يتمتع « تحوت » إله المعرفة والثقافة بمكانة فريدة وجليلة فى « البانثيون » المصرى ، وأن يتخذ ربا للحكمة والمعرفة الكاملة وأن يعد مخترع كل العلوم والفنون والآداب والرياضة وعلم المساحة والهندسة والفلك والتنبؤ والسحر والطب والجراحة والموسيقى الوترية والهوائية والرسم والقصص والشعر ، ومخترع فن الكتابة ، وأن يسمى لذلك « سيد الكلمات المقدسة » ورب البيان وأول السحرة . ومثلما جعلوه إله المعرفة جعلوه أيضا إله القمر ، وتلك مقابلة بديعة لأن نور المعرفة يهدى كنور القمر .

وتقول العالمة الأثرية الفرنسية كريستين نوبلكور إن مصر قد عرفت تقريبا كافة مراحل التعليم المعروفة حاليا ابتداء من الكتاتيب حتى الدراسات العليا . وكان من أحب الألقاب لدى المصرى القديم أن يلقب « بالكاتب » ومن أكبر أمنياته أن يصنع لنفسه تمثالا يضعه فى مقبرته يمثله فى هيئة الكاتب المتربع . وكان المصريون يتصورون أن الإله أوزيريس رب العالم الآخر يغضب أشد الغضب إذا وفد على محكمته جاهل . وهناك بردية شهيرة تعرف باسم « تعاليم خيتى بن دواوف لابنه بيبى » تحوى النصائح التى يوصى بها هذا الحكيم ابنه وهما فى طريقهما على سفينة بالنهر لإلحاق ابنه بمدرسة الحكام ، ومنها قوله : « عليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب . لا شىء يفوق قدر الكتب . . ليتنى أجعلك تحب الكتب أكثر من أمك . . ليت فى مقدورى أن أظهر جمالها أمام عينيك . ان الكتابة أعظم من أية حرفة » .

وسر عطاء مصر الثقافى المستمر حتى فى عصور الضعف والانحطاط هو تشرب التربة المصرية حب الثقافة والتعليم مما جعلها تحتفظ بالرواسب الحضارية التى تشبعت بها عبر القرون ، وهو أيضا السر فى كون الريف بوجه خاص بالرغم من فقره وقسوة الحياة فيه هو المستودع الذى تكمن فيه هذه الرواسب مما جعل لدى الفلاحين المصريين استعدادا ثقافيا عاليا . وإنه لمما يستدعى النظر فى هذا المقام أن معظم علمائنا ومثقفينا وفنانينا الرواد المحدثين نشأوا فى الريف أو انحدرت أصولهم منه والشاب القروى — منذ أيام رفاعة الطهطاوى حتى الآن — يمكنه أن يلتحق بأرقى معاهد العلم فى عواصم أوربا وأمريكا ويتفوق على أقرانه من أبناء الحضارة الغربية فى شتى فروع العلوم والآداب والفنون .

عندما اعتلى الشعب المسرح

تحت هذا العنوان تناول المؤلف الأقوال الحكمية التى تركها لنا بعض حكماء النيل مصورين فى سطورها الأحوال السيئة التى تردت فيها مصر سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، فأدت إلى اندلاع لهيب ثورة شعبية ساحقة ماحقة احتجاجا على تلك الأحوال وتراكم الأعباء على الشعب الطيب الصبور بسبب تضاءل سلطات الملك وظهور قوة الأمراء القطاعيين وانتشار المظالم وتفشى الفوضى واختلال الاقتصاد .

وكان لثورة الشعب التى قضت على سيطرة الفراعنة والأمراء وامتيازاتهم وحطمت قبورهم وتماثيلهم إلى جانب هذا الوجه المدمر جانب آخر ايجابى بناء فى سجل القيم الأخلاقية ،

إذ نجحت فى نقل الفكر المصرى القديم من مجراه العتيق إلى مرحلة جديدة تعترف بحق الشعب فى الخلود وقيم العدالة الاجتماعية والديمقراطية الدينية ، فكان ذلك إرهاصا بالاعتراف بحقوق الأفراد وبحق الشعب لأول مرة فى التاريخ .

وأول حكماء النيل المشار إليهم آنفا هو الحكيم ايبور . فقد وجه نذرا وتحذيرات إلى الملك يبى الناس مما هو مدون فى بردية وثائقية مكتوبة وصلت إلينا من عهد الأسرة الحادية عشرة . ويقول فيها : (لقد سلبت وثائق قاعة العدل ، وأصبح المكان السرى مكشوفا ، وطرحت سجلات المحاكم أرضا . . وأذيعت أسرار التعاويذ السحرية . وفى الحق لقد ذبح الموظفون وسلبت دفاترهم ، ولم تعد لكبار الموظفين كلمة مسموعة . . وامتلأت البلاد بالعصابات . . أصبحت التماسيح فى تخمة بما سلبت إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر) .

والحكيم الثانى هو نفرر وهو ، وهو لا يصف فى برديته أحداث الثورة فى ذاتها بقدر ما يعرض — فى تنبؤ مرهف — آثارها الفكرية والسياسية والاجتماعية ، وذلك بأسلوب تصويرى مؤثر يجعل من أقوال الحكيم مقطوعة أدبية تدرج فى عداد المراثى أو البكائيات لما آلت إليه الثورة ، فالثورات الفاشلة — كما يقول الأستاذ محمد العزب موسى بحق — تجلت دائما من القلم أكثر مما قالت لهدمه .

أما الحكيم الثالث فهو (خع خبر رع سنب) وكان من كهنة هليوبوليس فى عصر الإقطاع ، وقصيدته تشى بالحزن والأسى والإحساس بالمجتمع وبالعلاقات الاجتماعية إحساساً لا نجده قويا وواضحا عند الحكيمين (إيبور) و (نفرروهو) .

بزوغ القيم الفردية والاجتماعية

يعقد المؤلف فصلا ضافيا لهذا الموضوع تناول فيه التحليل وثيقة مجهولة صاحبها يطلق عليها المؤرخون « حوار بين انسان سئم الحياة وبين روحه » . وقد شبه العلامة برستيد فى كتابه « فجر الضمير » صاحب هذه البردية الذى توالت عليه الرزايا والمحن بالنبى « أيوب » ، مما حدا الاستاذ محمد العزب موسى إلى القول بأن هذا التشابه يجعل من المحتمل أن تكون هى الأصل التاريخى لقصة النبى أيوب .

وهى تتألف من أربع مقطوعات شعرية يضف الحكيم الشاعر المجهول فى الأولى إلى أى مدى يصبح ذكره مقيتا كريها لدى جيرانه ومعاصريه . ويتحدث فى الثانية عن فساد الأحوال الاجتماعية ، الأمر الذى أصابه بالغم والحزن . وفى الثالثة يتغزل فى فكرة الموت باعتباره الراحة الوحيدة ، ويخصص الرابعة لمراجعة النفس وثنيها عن الأسى . والملاحظ أن المقطوعة الثالثة التى تتغنى بمآثر الموت لا تربط فكرة الموت مطلقا بفكرة الإله والحساب والعالم الآخر . بل تقتصر على تصوير الموت بأنه نهاية سعيدة لآلام نفسية مبرحة .

وهذه نغمة جديدة كل الجدة على الفكر المصرى القديم الذى كان يربط دائما بين فكرة الموت والعالم الآخر بمن فيه من آلهة وعقاب وثواب . بل إن الفكر الدينى فى عهد الدولة القديمة لم يكن يعتبر الموت نهاية ، بل يعتقد أن الحياة الحقيقية هى التى تبدأ فى السماء . ومن هنا جاءت محاولة التغلب على الفضاء المادى للجسد بإقامة المقابر المنيعة ، وتحنيط أجساد الموتى ، وتطعيم صاحب المقبرة بالأطعمة وإحاطته بأتباعه وتماثيله ووسائل ترفه الدنيوى . فلو كان الموت نهاية لما كان ثمة ما يدعو إلى كل هذه الاحتياجات . ولكن الموت فى نظر الفكر التقليدى ليس سوى حياة بكل معنى الكلمة يحياها المتوفى فى العالم الآخر مع رع الذى يأخذه بيده فى رفق ويرفعه إليه .

إن تصوير الموت فى نظم سائم الحياة الذى تتحدث البردة بلسانه لا يمكن أن ينبع إلا من فلسفة مادية لا تؤمن أو تهتم بالعالم الآخر . ويكفى أن ينظر إلى تجربة الموت كغيبوبة لذيذة يعبر عنها الحكيم الشاعر بأنها تشبه الدخول فى نشوة الخمر .

بزوغ فكرة العدل والديمقراطية

إذا كانت الثورة الشعبية قد فشلت فى إيجاد نظام مستقر للحكم ، فإنها نجحت فى تنبيه الأذهان إلى أهمية الحكم العادل ، وربطت بين الحاكم أو الملك وبين فكرة الإصلاح خلافا لما كانت عليه الحال فى عهد الدولة القديمة حين كانت مسئولية الحاكم الاجتماعية لا تثير الانتباه لاستتباب الأوضاع إلى حد كبير . وكانت النظرة إلى ملوك الدولة القديمة مرتبطة فى المحل الأول بالدين ، فكان الملك يقدس باعتباره إلها سواء أكان عادلا أم ظالما . ولكن ها نحن نرى فى عهد ما بعد الثورة مدى ارتباط فى « التعاليم الموجهة إلى الملك مريكا رع من أبنه

الملك أخيق الرابع أحد ملوك أهناسيا . وتحمل هذه التعاليم مسحة واضحة من التواضع والديمقراطية تدل على مدى تغير عقلية الملوك فى عهد ما بعد الثورة . فيصبح الملك أقرب إلى أن يكون هادما للشعب وراعيا للقطيع كما كان يأمل الحكيم ايبور .

وكان من شأن هذا التطور أن اكتسب الفرد العادى كافة الحقوق الدينية التى كانت مقصورة على الملوك والعظماء الذين زلزلت الثورة مكانتهم ، وتحولت الديانة الرسمية السائدة على مستوى الشعب والدولة من عقدية رع التى لا يدرك أسرارها الغامضة إلا الخاصة إلى عقيدة إوزيريس التى كانت أقرب إلى فهم الناس البسطاء لأنها أسطورة تستمد مغزاها من الصراع اليومى الظاهر بين الخير والشر .

لم يكونوا مجرد عبدة أوثان

خص الأستاذ محمد العزب موسى هذا الموضوع بأطول فصول كتابه فأفاض فى دحض شبهة الوثنية التى تلحق ظلما بقدماء المصريين ، ذلك لأنه لا يصح وصفهم بالكفر قياسا على ما بلغه الفكر الدينى من الرقى فى ضوء الرسالات السماوية اللاحقة . فالدين كما أوضح الأستاذ عباس العقاد خضع لمبدأ التطور ، وكان من المحال على الشعوب الدينية أن تصل بالفكر الدينى إلى منتهاه التوحيدى فى زمانها . فالعقل البشرى لم يكن قد بلغ مرتبة تؤهله لذلك ، بل كان ما يزال فى طور الطفولة الذى تناسبه الأساطير والمحسوسات بقدر عدم قدرته على التجريد وإدراك المعنويات .

على أن المصريين القدامى قد قطعوا رغم ذلك شوطا كبيرا على الطريق الصحيح نحو معرفة الله الحق واستشراف جانب كبير من الأفكار الرئيسية التى جاءت بها الأديان السماوية فيما بعد ومنها فكرة الحساب فى العالم الآخر وما يترتب على الحساب من جزاء ، وهى فكرة أساسية فى كل الأديان بعد فكرة وحدانية الخالق . وهذه أيضا استشرافها المصريون خاصة فى تجربة اخناتون .

وقسم المؤلف هذا الفصل إلى ثلاثة أجزاء :

١ ـ مبدأ التعددية الذى شاع فى الفكر الدينى المصرى .

٢ ـ فكرة وحدانية الإله التى دعا إليها اخناتون .

٣ ـ الأفكار الأساسية عن خلود الروح وخضوعها للحساب عن أعمالها فى العالم الآخر .

واختتم المؤلف كتابه بفصل بعنوان (رواسب قديمة فى حياتنا المعاصرة) بين فيه أوجه الشبه القوية بين كثير من ملامح الحياة المصرية المعاصرة ومثيلاتها فى العصر الفرعونى ولا سيما فى الريف قبل أن تمسه عصا الثورة التكنولوجية ويتجلى التشابه بصورة خاصة فى تخطيط القرية وشكل المنازل وأسلوب الحياة اليومية والأدوات المستعملة فى البيت من الحقل وطريقة الزراعة والحرف من الصناعات اليدوية والوشم ، وكذلك فى العدات والتقاليد وفى بعض الألفاظ والتعبيرات وألوان من الفنون الفولكلورية كالأغانى وخاصة الموالى المصرى .